التصوف الإسلامي

د.حمادي هواري*

الملخص باللغة العربية:

في هذا المقال أحاول البحث في موضوع التصوف الذي يعتبر أهم حقول ومجالات الفلسفة الإسلامية التي كانت وما تزال تطرح إشكاليات متنوعة تتعلق ب **نشأة التصوف في الإسلام** وعلاقته بالزهد ومفهومه بين مصطلحات الصوف –صوفيا –الصفاء- وخصائصه وأبعاده وأثاره، تلكم هي جملة المسائل التي نفهم من خلالها جذور وطبيعة وأبعاد التصوف في الإسلام.

ملخص باللغة الإنجليزية:

Article Summary : In this article I try to research the subject of Sufism, which is the most important fields and areas of Islamic philosophy, which was and still raises various problems related to the emergence of mysticism in Islam and its relationship to asceticism and its concept between the terms wool - Sophia - clarity - and its characteristics and dimensions and effects, these are the issues that we understand from During which the roots, nature and dimensions of Sufism in Islam.

مدخل:

يعتبر البحث في المفهوم من أهم المسائل التي يقوم عليها الفكر الفلسفي ماضيا وراهنا، ومن بين المفاهيم التي تستحق الإثارة والنقاش في مختلف المناسبات التصوف الإسلامي، الذي قد يشترك مع الأنواع الأخرى للتصوف، كالتنسك الهندي والتصوف اليهودي والمسيحي واللامنتمي... في صفات ويختلف عنها في أخرى نتجت عن علاقته بالإسلام،

* المؤسسة: قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة معسكر. البريد الالكتروني [hamadi.houari@yahoo.fr]

فالاختلاف في منطلقات التصوف في الإسلام بين الثقافي العربي الإسلامي كاللغة العربية والدين الإسلامي، والفلسفي الوافد من الشرق ومن اليونان، وتأثره من ناحية أخرى بواقع عاشه المسلمون في ميادين سياسية واجتماعية وثقافية ... منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا، من شأنه أن يثير جملة من الإشكاليات حول مصدر التصوف وعوامل نشأته وأبعاده، ومحورها : إذا كان نعلم أن التصوف في الإسلام لم يكن في البداية سوى زهدا فإلى أي مدى يمكن اعتباره مصطلحا دخيلا على المجتمع الإسلامي يرجع بالأساس إلى الوافد لا الرافد؟ أو بصورة أخرى هل يرد التصوف إلى عوامل داخلية اقتضتها طبيعة الإسلام والوحي القرآني خصوصا أم هو وليد تأثير الثقافات الوافدة من الشرق واليونان؟ أم هو نتاج تغيرات سياسية واجتماعية وثقافية اقتضتها طبيعة المجتمع الإسلامي؟

1-نشأة التصوف في الإسلام:

إن الحديث عن نشأة التصوف يثير إشكالا مركزيا، يطرحه 'حسين مروة' في كتاب النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية قائلا: " في حين يرجع بعضهم أصل هذا التصوف بمختلف أشكاله، وأطواره ومراحله إلى المؤثرات الخارجية: المسيحية، أو الزرادشتية أو الغنوصية القديمة، أو الأفلاطونية المحدثة أو إلى هذه جميعا في وقت معا، يرجعه بعضهم الآخر إلى الوحي الإسلامي نفسه ويعده الجانب الجوهري من هذا الوحي ويصفه بأنه قلبه أي قلب الوحي الإسلامي" (مروة، ح. 2002: 44)، فإشكالية نشأة التصوف تثير سؤال التأسيس له في الإسلام، هو التصوف من صميم الإسلامي أم يعتبر دخيلا عليه تولد ونشأ عن تأثير العامل الخارجي؟

يرى كثير من الباحثين أن التصوف من صميم الإسلام، نشأ ووجد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، مارسه الصحابة ضمن من كان يطلق عليهم - أهل الصفة- بالزهد والتدبر ، يؤكد الشيخ 'خالد بن تونس' في هذا الصدد أن "التصوف لم يصبح مدرسة حقيقية بشيوخها ونظامها وزواياها إلا في عهد الإسلام، بعد البعثة المحمدية ...ويوجد إلى الآن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة وبالضبط إزاء قبره الشريف، مكان مرتفع ينسب لأهل الصفة"(بن تونس، خ.2005 : 53) ، وهذا المكان هو ما اشتهر الصحابة به منذ فجر الإسلام حين كانوا يمارسون الذكر والزهد فيه، أو يمارسون التصوف في ما عرف بالزهد، وهو ما يؤكد أن منبعه القرآن الكريم والسنة النبوية نما وترعرع في كنفهما، في نظر بعض المؤرخين والمتصوفة لا يمكن رد التصوف ولاسيما كممارسة وزهد في الدنيا إلى العامل الخارجي، يضيف بن تونس في هذا الصدد: "أن نظريات أخرى مرتابة بل ومتحجرة - تؤكد- أن أصل التصوف مرتبط باتصال المسلمين بشبه القارة الهندية أو البوذية أو

الهندوسية أو حتى بالفلسفة الإغريقية كل ذلك خاطئ" بن تونس، خ.2005 : 53)، وبالتالي يعارض الفريق القائل برد التصوف إلى الثقافات والفلسفات الأجنبية وينضوي ضمن الفرق المؤيدة لدور الإسلام في نشأة التصوف الإسلامي.

يرى 'حسين مروة' أن كلا الفريقين وقعا في خطأ مشترك، وهو اعتبار التصوف منفصلا عن عوامل تاريخية واقتصادية واجتماعية وسياسية أدت إلى نشأته، مؤكدا أنه أحد انعكاساتها الفكرية، بحيث وجد في الإسلام منذ القديم ولا يعتبر حديث النشأة، وقد نشاطره هذا الرأي إلى حد كبير، لكن لا ننكر تظافر الديني مع الواقعي، والمحلي مع الوافد في نشأته، حيث "ظهر هذا الاسم أول مرة ،حسب الوثائق المعروفة الآن سنة 776 للميلاد . ونسب إلى متزهد عراقي . وابتداء من القرن التاسع الميلادي كان مصطلح الصوفية يدل في الكوفة وبغداد على جماعة من الزهاد والمتصوفين اشتهروا بتقشفهم ، وظهر في الإسكندرية سنة 821ميلادية جماعة من"المتطهرين " الذين ثاروا على فساد السلطة . وفي سنة 980 للميلاد تأسس في مسجد القاهرة أول مجلس للتعليم الصوفي ،وبعده باثنا عشرة سنة تأسس كرسي له ببغداد (شوفلي،ج.1999: ص7) فالحديث عن اسباب نشأة التصوف يرتبط بعوامل داخلية نابعة من البيئة المحلية للمسلمين التي اقتضت ظهوره وعلى رأسها معطيات القرآن والسنة والمناخ السياسي والاجتماعي السائد في البيئة العربية الإسلامية، وعوامل خارجية ي أثرت على المسلمين، المتمثلة بالدرجة الأولى في الثقافات الأجنبية الفارسية والهندية ...الناتجة عن الاختلاط بين العرب والعجم على وجه الخصوص.

فلا يمكن التركيز في نشأة التصوف على تلك العناصر التي تؤكد أولوية التراث الديني من قرآن وسنة ومعطيات الوحي وما تحمله من مضامين روحية، ولا على تلك العوامل الخارجية تلك التي تتمثل في الزرادشتية والتنسك الهندي والغنوصية القديمة والأفلاطونية المحدثة والدين المسيحي، وكل نظرة أحادية الجانب بل بغض النظر عن هذه العوامل يجدر الحديث عن التفاعل بين الرافد التراثي والوافد، والثقافي مع العوامل التاريخية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تقف وراء نشأته .

في الإسلام تحديدا ارتبط التصوف في البداية بحركة الزهد في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري، -السابع للميلاد، الثامن للميلاد- بظهور شخصيات اعتزلت المجتمع واهتمت بالعبادة والخلوة،وذلك لأن "كلمة صوفي كانت معروفة وشائعة للدلالة على الزهاد السالكين في أوائل القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) أو

قبله بقليل وكان يسمى بها البعض في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة" (بدوي، ع . 1996: 65)، فالتصوف الإسلامي في البداية كان زهدا، اي نفورا من ما هو دنيوي لأنه "ضد الرغبة والحرص على الدنيا" (ابن منظور، ج. 2005: 591) وجاء هذا الإعراض على الدنيا مصحوبا بالإقبال على الخلوة والعبادة لظروف سياسية واجتماعية جديدة ظهرت في العصر الأموي أهمها الاستبداد في الحكم وانتشار الثراء والغنى لدى الطبقات الحاكمة في مقابل فقر الآخرين أي أنه اصبح ظاهرة "مضمونها معارضة الأوضاع الاجتماعية والسياسية القائمة في ظل الاستبداد الأموي وفي ظروف ازدياد التمايز الاجتماعي الفاحش بين إثراء الحاكمين المفرط وإفقار الفئات الاجتماعية العريضة" (مروة ، ح. 2002 : 51).

تبعا لما سبق ذكره يمكن تتبع نشأة وتطور التصوف في الإسلام حسب تطور مفهومه، ففي المرحلة الأولى في تاريخ الإسلام، في القرنين الأول والثاني للهجرة، كان **زهدا**، وفي مرحلة لاحقة في القرن الثالث الهجري أصبح تصوفا عمليا تسربت فيه عناصر أجنبية على الإسلام مسيحية وفارسية وهندية ويونانية حيث أصبح يعرف ب**علم القلوب** ومن بين الشخصيات المشهورة آنذاك "ذو النون المصري، وأبو يزيد البسطامي، والجنيد، وفي مرحلة تالية أصبح **التصوف فلسفيا** قائما على المعرفة والمحبة أكثر منه زهدا وعبادة بدنية وغلب على المتصوفة الفناء في الله" (عزام،م.2004: 81) وهنا نشأت فيه مصطلحات الحلول والاتحاد والإنسان الكامل، وهنا ظهرت شخصيات صوفية كبيرة كالحلاج (ت309 ه) والسهرودي (ت587ه) وابن عربي (ت638)...وبعد ذلك أصبحت الصوفية طرق متعددة، تنوعت في الفترة الحديثة والمعاصرة لدرجة يمكن القول فيها أن التصوف **أصبح طرقيا** مؤخرا، بتنوع الطرق كالقادرية والتجانية والشاذلية والدرقاوية ...وبالتالي لا يمكن ربط التصوف بعامل واحد ديني أو خارجي أو ثقافي أو سياسي بل هو مفهوم متطور، تغير معناه عبر التاريخ رغم ارتباطه بمصطلح واحد ألا وهو التصوف.

2-مفهوم التصوف الإسلامي:

هناك اختلاف حول المعنى الاشتقاقي لكلمة التصوف، حيث ربطها البعض بلبس الصوف عند المتصوفة وآخرون بالصفاء بينما اعتقد آخرون بأنه مشتق من كلمة صوفيا وهي الحكمة، إذن هناك ثلاث كلمات جوهرية تحدد مفهوم التصوف وهي –صوف، صوفيا، صفاء- نحللها بالتفصيل كما يلي:

1-التصوف يعود إلى كلمة الصوف على أساس أن الصوفي هو من يلبس الصوف في شكل خرقة أو عباءة أو جلابة ويبتعد عن كل ما هو لباس فاخر ولكن هذا اللباس لا يعود إلى أثره الخارجي في الجوهر بل انعكاساته الداخلية على نفسية المتصوف إذ يكون لديه " علامة على فقر ظاهر أو على الأقل يدل هذا اللباس على إرادة الانقطاع ولا يلبس المريدون جميعا ودائما لباس الصوف، ولكنهم جميعا يطلبون تقشفهم الانقطاع الباطني باتخاذهم هذه الرموز" (شوفالي ،ج، 1999: 8) فلبس الصوف عند الصوفي لا يعود إلى الصوف في ذاتها بل على الحكمة من لبسه وهي التقشف والزهد في الحياة والانقطاع عن ملذات الدنيا التي تبدو أول ما تبدوا في نوع اللباس الذي يلبسه الناس.

2-التصوف يعود إلى الصفاء لأن الصوفي هو من يصفوا و يتطهر باطنه من الشهوات، وتنتصر فيه الحياة الروحية على الجياة المادية، وبالتحديد هو مي يحقق درجة صفاء القلب لأن الصوفية كما يقال هم أصحاب القلوب لا أرباب العقول، حيث تصبح جميع أفعالهم وحركاتهم وسكناتهم وأفعاله خالصة لله تعالى أي أن النية هي الشرط الأول للصفاء لما تحققه من اتجاه القلب إليه تعالى وحده بالتزام أوامره واجتناب نواهيه، حيث يرتبط بالطهارة الداخلية وهي الصفاء الباطني.

3- التصوف يرتبط باللفظ الإغريقي "صوفيا" وهي الحكمة لان معظم الصوفية طلبوا معرفة الحكمة وجعلوا غايتهم النهائية والجوهرية هي قبل كل شيء معرفة الله الواحد الأحد التي يكون بلوغها الكامل بالانقطاع إليه تعالى عن طريق نمط حاص من المعرفة وهي المعرفة الذوقية، التي يتأسس من خلالها ما يعرف بالعرفان الذي يسميه البعض بالغنوص، لأنه التصور الأنسب لهذا المفهوم الثالث لأنه يجعل المعرفة الباطنية السبيل الأمثل لبلوغ الحقائق ولكن لا تكون بالعقل والتأمل الجاف بل تكون مصحوبة بالحب ومحددة الهدف وهو الاتصال بالله تعالى أعلى وأسمى الحقائق عند مختلف المتصوفة، وهي ما تجلت في المذاهب الصوفية المعروفة في تاريخه.

إضافة إلى هذه المفاهيم الثلاثة التي اشتهر بها التصوف، يضيف "عبد الرحمن بدوي" مجموعة من المفاهيم الأخر وتتمثل في ربط تسمية المتصوفة "بأهل الصفة وهي المقعد، وكان لقبا أعطي لبعض فقراء المسلمين في عهد الرسول والخلفاء الراشدين....ومنها أنهم ينسبون إلى الصف الأول من بين المؤمنين في الصلاة، ومنها أنهم ينسبون إلى بني صوفة، وهي قبيلة بدوية كانت تخدم الكعبة في الجاهلية، ومنها أنهم

ينسبون إلى الصفوانة وهي نوع من البقل، ومنها أنهم ينسبون إلى "صوفة" القفا وهي خصلة الشعر على القفا" (بدوي ،ع. 1996: 65).

وتنطلق مختلف التعاريف الاصطلاحية للتصوف من هذه المفاهيم وتعرفه بأنه طريقة سلوكية قوامها الزهد والتقشف والانقطاع عن الدنيا لتحصيل المعرفة الذوقية التي هدفها حكمة الحكم وهي الوصول إلى الله تعالى، حيث يعرفه الجرجاني بأنه الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين، وقيل مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل(الجرجاني، ش، 2006: 57) ويضيف بعد ذلك جملة من التعريفات المحددة له منها قول الشبلي التصوف هو حفظ حواسك ومراعاة أنفاسك ،صفاء المعاملة مع الله، الصبر تحت الأمر والنهي.

كما يمكن القول أن التصوف أنواع وأجناس، وما يهمنا هنا نوعه الفلسفي الذي "يعتمد على التأمل الباطني والرؤية الفلسفية، والاعتبار والتبصر، وملاحظة الأغيار، والترقي عبر سلسلة الممكنات، ليتحد بالمعقولات ويصبح الصوفي قادر على إدراك الصور المعقولة مجردة عن موادها وأقصى ما يصل إليه العارف هو الاتصال بالعقل الفعال أو النفس الكلية" (حميدي، خ. 2011: 4)، فالتصوف الفلسفي هو ما يعتمد التأمل و ما يصل إلى نظريات وأفكار فلسفية تدرك بتجاوز الظاهر إلى الباطن ووالاتحاد بواجب الوجود، والفناء في البارئ تعالى، كما يتجلى في نظرية وحدة الوجود عند ابن عربي، والحلول عند الحلاج... وعندما يترابط التصوف الفلسفي بالمعرفة النورانية يسمى تصوفا إشراقيا الذي يقوم على تجاوز العالم المادي إلى العالم الروحاني بالمعرفة النورانية التي تدرك أساس إدراك الحقائق بتجلي أنوار الغيوب والمعرفة اللدنية من علام القلوب على العارفين، التصوف الإشراقي الذي يعتبر في رأي حسين مروة تركيبا جديدا للصورة التي طرحت فيها العلاقة بين الله والإنسان، بتضمنه لمفاهيم ومقولات ومصطلحات دخلت على التصوف الحاصل في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري الذي كان مجرد زهد. ومن أهم رواد الأشراق شهاب الدين السهروردي (1135- 1191 م الذي يرى أن النور هو مصدر العالم ويمثل نور الأنوار هو مبدأ الحقيقة والمعرفة .

أما علم التصوف كما ورد في كتاب "اصطلاحات الصوفية"، فيأخذ معان متعددة ومختلفة باختلاف مجالات استعمالها، أهمها تلك التي تظهر في : المعاملات وهي: "علم الطريقة الحاصل بالرعاية والمراقبة من علوم التوكل والتفويض والتسليم

ونظائرها"، وفي الأخلاق: علم آفات النفس ورذائلها وكمالاتها وفضائلها وعلم التركن والتحلية. وفي الأصول: علم اليقين ومعرفة آداب الحضرة والسلوك ودرجته في الأحوال: علم لدني وهبين يبصر بدقايق الأحوال وذنوبها ومفاسدها وتصححها بتعريفه أحكامها وخواصها" (القاشاني، ع. 2005: 132)، ففي هذا الصدد يمكن القول أن التصوف عند الكثير من مريديه يعتبر علما وليس سلوكات فقط، بل هو العلم الحقيقي الشرعي المطلوب أي هو العلم الحق دون غيره واجب تحصيله، أمر به الله تعالى عباده المخلصين، وهو العلم المقترن بالعمل يقوم على التصفية والتزكية قوامه تجاوز الاستدلال إلى التحلية والتخلية والتجلية، وغايته الفناء وشهود الحق –حق اليقين- .

في الأخير يمكن القول أننا لا نستطيع الوصول إلا تعريف جامع مانع للتصوف، لأنه "ليس رسما أو علما ولكنه يحصل بالمجاهدة الفردية وليس الجماعية، وباعتبار أن التصوف هو إشراق أو علم ديني، يحصل بين العبد وربه، وصلته بالعالم الإلهي من جانب، الآخر هو أن الدراسات لم تتوصل إلى منهجية لرسم حالات الصوفية التي بقيت فوق تصورات العقل"(الدرويش ع. 2006 : 13).

3-خصائصه:

كما لاحظنا سابقا فإن التصوف في الإسلام يتميز بتعدد مفاهيمه، و له ثلاثة خصائص أساسية وهي الانقطاع والزهد في ملذات الدنيا، التطهر والصفاء من شهوات القلب والتزام النية في الأعمال لوجهه تعالى وحده، بلوغ الحكمة وهي معرفة حقيقة الحقائق عن طريق الذوق وهي : الله تعالى وحده، كما أن علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة بمعنى أنه لم يوجد عند الصحابة والتابعين ويمثل " العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها"(ابن خلدون،ع، 2004: 504)، ويرتبط عند المسلمين بمفاهيم أخرى كالعرفان رغم أن هذا الأخر درجة عليا من درجات التصوف لا يصل إليها إلا من بلغ درجة ارق في المسلك الصوفي.

كما أن التصوف في الإسلام يتميز بأنه ارتبط بالمتصوفة وهم الذين اتبعوا المنهج الذوقي والتجربة الذاتية الروحية الباطنية القائمة على المعرفة القلبية التي تعمل على الكشف والمشاهدة بواسطة الممارسة عن طريق الخلوة والاعتزال والذكر، ويشير ابن خلدون في كتاب المقدمة إلى اختلاف كتابات المتصوفة في نصه القائل:"فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية له، ومنها من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها

ومواجدهم في الأحوال كما فعل القشيري في الرسالة، والسهروردي في كتاب "عوارف المعارف" وأمثالهم. وجمع الغزالي بين الأمرين في كتاب الإحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علما مدونا"(ابن خلدون،ع، 2004: 506).

يتميز التصوف في الإسلام كذلك بأنه ليس علما نظريا فقط بل هو في جوهره طريقة أو منهج عملي يسلكها المتصوفة في البحث عن الحقيقة بالقلب والذوق، حيث أن "طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقهم المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله"(الغزالي أ، 2013: 65)، فالتصوف في جوهره طريقة تقوم على المزاوجة بين عمل العقل والقلب، وهذا الأخير هو الأصل حيث يجعل النفس تدرك الحقائق بعد محاربتها لشهواتها أو تهذيبها لها، والتخلص من الصفات الخبيثة والمذمومة كالحسد والبخل....مع التلاوة والذكر والصبر.

يرتبط التصوف كذلك بالشيخ والمريد، وبالطرق التي يؤسس لها الصوفيون المسلمون، و هم الذين انطلقوا من أسس الدين الإسلامي وهي القرآن الكريم والسنة النبوية وتجارب الأسلاف من الصحابة والتابعين من الأولياء والرجال الصالحين ولكن تأثروا كذلك بأفكار خارجية كالإطلاع على التنسك الهندي والتصوف اللامنتمي والمسيحي في سلوك تجربة روحية وجدانية تقوم على فعالية المعرفة القلبية والإشرافية لتحصيل المعرفة اللدنية كأسمى المعارف.

يقوم التصوف في الإسلام كذلك على عدم الفصل بين ما هو دنيوي والأخروي، حيث يعتبر -الدنيا مزرعة الآخرة –"فقد وازن التصوف بين حاجات النفس ورغباتها المشروعة في إطار التوافق بين الدنيا والآخرة، ذلك التوافق الذي لا يجعل مجالا للتطرف دونما حساب لنصيب الإنسان من الدنيا ...بل إن أجمل ما في الإسلام أن حق الحياة الآخرة لا يجور على حق الحياة الدنيا"(علي محمد، ع ع.2014: 24) وهذا ما يجعل غايته تزواج بين بعديه الديني والدنيوي والروحي والمادي وإن كان طريقة روحية قوامها الزهد والتحلي والتخلي والتجلي.

يعتمد التصوف في الإسلام على أولوية التأويل القائم على الذوق والعرفان وينتقدون العقل والبرهان، كما يظهر في قصة اللقاء بين بن رشد، بن عربي حين انفصلا واختلفا الشيخ الأكبر عن الشارح الأكبر في أهمية الذوق على النظر العقلي رغم اتفاقهما في التأويل وأولوية الباطن على الظاهر، وعند المتصوفة "الباطن هو مراد الله

من كلامه وخطابه ومن علم الباطن فقد فهم عن الله، لذلك يؤولون القرآن بالإشارات مما ينتج عنه أن تتحول نصوص القرآن إلى رموز وإشارات"(عبد المعز، محمد. 2016: 7) فالمعنى الحقيقي للنصوص الدينية في التصوف الإسلامي يدرك بالقلب وفهم باطن النص عن طريق المعرفة اللدنية التي تظل وقفا على الأولياء والعارفين دون غيرهم.

4-أبعاد التصوف الإسلامي:

للتصوف في الإسلام أبعادا مختلفة متنوعة، فهو أداة للتهذيب والتطهير من أمراض القلوب، كما أنه صلة بين الإنسان والخالق، وطريق للمعرفة الدوقية القلبية، وفي الفترة الراهنة في عصر العولمة، ونتيجة لإفرازات التطور التكنولوجي، وانتشار ظواهر التطرف الديني والنزعات الطائفية، وتزايد ظاهرة الاسلاموفوبيا،...أصبح الحديث عن التصوف ولاسيما في البيئات التي ينتشر فيها المسلمون من القضايا الجوهرية لفك طلاسم الكثير من المشاكل التي نجبت عن التغيرات التي عرفها العالم، كما سلف ذكرها على مستويات شتى، إذ أضحت المبادئ الكبرى التي قام عليها التصوف، كالأنسنة، والحب، التقارب بين الأديان وحوار الحضارات، أهم ما يطلب اليوم لمواجهة المستجدات.

فالرسالة السامية التي جعلها المتصوفة نصب أعينهم في هذا الوجود، هي:" الحب النابع من الله، الحب الذي يرجع إليه، شأنه شأن كل واقع" (غارودي، ر. 2001: 20)، وهذه الرسالة حسب غارودي هي ما تلعب دورا كبيرا في التقارب بين المسيحية والإسلام، وذلك لأن "التذكير القرآني بعيسى بن مريم سببه لقاء روحي عميق بين الإسلام والمسيحية، ولدى الصوفيين المسلمين على وجه الخصوص، الذين يعبرون عن الأبعاد الداخلية والحب في الإسلام تعبيرا بقصائد طويلة في الغالب" (غارودي، ر. 2001: 22)، فمن خلال القصائد والأشعار الصوفية يتجلى مبدأ الحب الذي هو الاصل في تحقيق التسامح ونبذ التعصب واحترام الآخر، كما أنه هو الجامع بين الديانات، لأن "المتأمل للتراث الصوفي يقف على أن التصوف كمنهج حياة ظاهرة إنسانية، لم يخل منها دين من الأديان ولا حضارة من الحضارات، ذلك أن الاهتمام بالمعنى الإلهي، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات الخالدة للإنسانية" '(الجياش، ع. 2009: 17).

يساعد التصوف على مواجه الإسلاموفوبيا والتطرفات الدينية بمختلف أنواعها، لأنه يقوم على الحوار بين الأديان، كما تجلى بوضوح عند أحد كبار المتصوفة في الفترة الحديثة ألا وهو الأمير عبد القادر الجزائري الذي أسس للأنسنة و النزعة الإنسانية بنبذ التطرف واحترام الإنسان الكوني، بعيدا عن هيمنة المعتقد أو العادات

والتقاليد والانتماء والهوية، هذا ما تجسد في شخصية الأمير عبد القادر الجزائري ، حيث أكد - إدريس الجزائري- :الممثل الدائم للجزائر لدى الأمم المتحدة سابقا، أن الأمير كان منشدا لفهم حقيقة الإسلام كدين ينبذ التطرف الملحق به بهتانا وزورا مستندا على قوله " عندما ترى أشخاصا غير متربصين يظنون أن مبدأ الإسلام هو التشدد والقسوة والعنف والبربرية فهي فرصة لتكرار هذه الكلمات: الصبر شيء جميل وإلى الله ينبغي اللجوء".

فلم يستنبط الأمير من مبدأ " الإسلام الحقيقي" التشدد ولا نموذج العنف الذي يراد إلصاقه بالمسلمين كوسيلة شعبوية للتخفيف فالدول المتقدمة، إنما استلهم من مبدأ " الإسلام الحقيقي" المحبة والأخوة والإنسانية لشق الطريق لتأسيس قانون دولي إنساني جامع وفعال".

وإن جل القيم الإسلامية التي كثيرا ما تعرضت إلى القذف هي التي ألهمت الأمير كمنشد للحوار بين الديانات.

ذلك أن فكر وأعمال الأمير يشكلان دواء للحد من تصاعد اللاتسامح، تلك الظاهرة المشؤومة لهذه الهويات القاتلة ا "(الجزائري إ- 2007: 13) فالحوار بين الديانات هو من أشاد به الأمير مبينا أن الأديان على اختلاف أنواعها تتفق فيها، انطلاقا من اشتراكها في قيم كونية كحفظ الشخص وحفظ النفس وحفظ والمال والأسرة كما تعرف في تراثنا بمقاصد الشريعة، ومؤكدا أن محاربة التطرف وإرساء دعائم الحوار بين الديانات ووتكريس تعاليم الحوار والتسامح واحترام الآخر هي جوهر فلسفته الصوفية التي استمدها من شيخ محي الدين ابن عربي ومشايخه الآخرين، وكل هذا يؤكد أن الأبعاد التي يهدف إليها الخطاب الصوفي من حوار وتسامح واحترام للآخر...هي الأنسب لتحديات العصر اليوم الذي تضاءلت فيه قيمة الإنسان في ظل المستجدات الراهنة.

الخاتمة:

يمكن القول في الأخير أن التصوف الإسلامي قديم في وجوده كممارسات وطقوس وأفكار انطلقت من الزهد منذ عهد الصحابة، بينما هو كمصطلح دخيل على الثقافة العربية، ارتبط وجوده بتأسيس مذاهب وطرقا صوفية قائمة بذاتها في شتى أنحاء البلاد الإسلامية، وصفوة القول: التصوف في الإسلام علم وعمل، تنظير وممارسة، أفكار وطرق جوهرها صفاء القلب، تكمن غايتها في الاتصال بالخالق، وتنطوي أبعادها على الرفع من كرامة الإنسان بجعله خليفة في الأرض كما ورد في

الإسلام والقرآن الكريم ولاسيما إن كان هادفا لإرساء دعائم وجود إنسان ذو بعد عالمي وكوني.

أهم مصادرومراجع البحث:

1-ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان. 2004.

2-ابن منظور، لسان العرب، ج2، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان،ط1، 2005 .

3-الدرويش العيد، فلسفة التصوف في الأديان، دار الفرقد دمشق سورية، ط1، 2006.

4-القاشاني عبد الرزاق، اصطلاحات الصوفية، دار الكتب العلمية، ط1، 2005.

5-الجرجاني، شريف، التعريفات، مؤسسة الحسني، ط1، 2006

6-الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، المكتبة العصرية، ط1، 2013.

7-الجياش عبد الحميد، التصوف الإسلامي بين الحقيقة والواقع، دار النهضة العربية، ط1، 2009 17.

8-بن تونس خالد، التصوف قلب الإسلام، دار الجيل بيروت لبنان، ط1، 2005.

9-بدوي عبد الرحمن، ملحق موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1996.

10-حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، بيروت لبنان 2002.

11-حميدي خميسي، نشأة التصوف في المغرب الإسلامي الوسيط-اتجاهاته، مدارسه، أعلامه، عالم الكتاب الحديث إربد الأردن2011.

12-علي محمد علي عبد الله، التصوف والصوفية، طوي للثقافة والنشر والإعلام، لبنان، 2014.

13-عبد المعز محمد، تأويل القرآن بين الصوفية والفقهاء، مصر العربة للنشر والتوزيع ط1، 2016 .

14-مداخلات وإبداعات الأسبوع الثقافي لولاية معسكر بالجزائر.، منشورات دار الأديب – حي باهي اعمر السانيا وهران، المداخلة من إعداد:الممثل الدائم للجزائر لدى الأمم المتحدة- إدريس الجزائري- بعنوان: الأمير عبد القادر الجزائري،- نشرت في الدوحة قطر يوم 14فبراير عن جريدة صوت الأحرار الأحد 18فبراير 2007.

15-مروة حسين، النزعات المادية في الفلسفة العربية- الإسلامية،ج3، ط2، 2002، دار الفارابي، الجزائر.

16-روجيه غارودي، الإسلام، دار الفارابي-الجزائر-، ط2، 2001.